الحنين الى الاوطان

خرجت امرأة من اهل الحجاز في جماعة من النساء ، فرآها رجل من اهل الشام فأعجبته ، فسأل عنها فنسبت له ، فخطبها الى اهلها فزوجوه على كره منها ، فهبط بها ارض الشام وخرجت مخرجاً فسمعت متمثلاً يقول :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا جنوب المصلى ام كهدي القرائن
وهل ادؤر حول البلاط عوامر من الحي أم هل بالمدينة ساكن
اذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتيامن
فلم اتركنها رغبة عن بلادها ولكنه ما قدر الله كائن

فتنفست بين النساء فوقعت ميتة :

لو امسك مصور من حذاق المصورين بريشته ، وأحب ان يصور لنا رجلاً حنى الضلوع على الكلف بوطنه ، والعلق بتربته ، لما وجد سبيلاً الى انشاء صورة تبلغ من النفوس ما بلغه تنفس هذه الحجازية التي اشتملت جوانحها على قلب ارق من نسم الريح .

ان من حرية الرجل وكرم غريزته نزاعه الى اوطانه ، وتشوقه الى تربته ، والكريم يحن الى جنابه ، كما يحن الاسد الى غابه ، واللبيب يشتاق الى وطنه ، كما يشتاق النجيب الى عطنه ، فالوطن هو عش المرء الذي فيه درج ومنه خرج ، حضنته احشاؤه ، وأظلته افياؤه ، وغذاه هواؤه وماؤه وتربة الصبا كما قيل تغرس في القلب حرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادة فيه رقة وحفاوة ..

وما برح الناس في كل قطر ودهر ، وعلى الخصوص اصحاب الخيالات منهم يولعون باوطانهم فلا يزدادون كبراً الا ازدادوا لبلدانهم حباً لأن الانسان منذ وعى على نفسه وقعت عيناه على منبسط آفاقه ، ومنفسح جوائه ، فألف نظره أرضه وسماءه وماءه وهواءه ، ووهاده ونجاده ، فاستقر حبها في حواشي صدره وامتزج باجزاء نفسه ، فلا تنفك صورة تربته ماثلة في ذهنه سجيس الليالي ، وسواء على الناس أخصبت بقاعهم أم لم تخصب ، وسواء عليهم أعذب ماؤهم أم لم يعذب انهم لا يؤثرون على وطنهم وطناً ،

ولا يفضلون على جنابهم جنابًا ، ولو سألت سكان البلاد الحارة الذين احرقتهم حمارة القيظ ، او اهل الاقاليم الباردة الذين قتلتهم صبارّة القر ، ولو سألت الحضري الذي ألف نضارة العيش او البدوي الذي لم يعهد بهجة الدنيا عن اجمل تربة في عينه لقال كل واحد منهم :

بلدي ! بلدي !

قال الجاحظ في الحنين الى الاوطان : وترى الحضري يولد بأرض وباء وموتان وقلة خصب فاذا وقع ببلاد أريف من بلاده وجناب أخصب من جنابه واستفاد غنىً حنَّ الى وطنه ومستقره .

وترى الأعراب تحن الى البلد الجدب والمحل القفر ، والحجر الصلد ، وتستوخم الريف .

فحب الوطن هو الذي جعل الأعراب يأنسون ببقاعهم مع فاقتهم وشدة فقرهم فهم كما قالوا لا يريدون بارضهم بدلاً ، ولا يبغون عنها حولاً ، نفحتهم غداوتها ، وحفتهم فلواتها ، فلا يملوح ماؤها ، ولا يحمى ترابها ، ليس بها اذًى ولا قذًى ، ولا أنين ولا حمى ، وطاؤهم الارض ، وغطاؤهم السماء ، وطعامهم الشمس ، وشرابهم الريح ، يمشي احدهم ميلا فيرفض عرقًا ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ويجلس في فيئه فكأنه في ايوان كسرى ولا يعلم احداً اخصب منه عيشًا .

فلولا الوطن ، لولا الوطن لم يحفل اعرابي بعرار نجد ونفحاته ، ولا طلب سبيلاً الى ريح الخزامى ونسيم النعامى ولا هاجه هبوب الجنوب ولا كلف قلبه باثلات القاع .

وكثيراً ما شفي العليل في البلد النازح بشربة من مائه ، او شمة من هوائه ، وكانت العرب كما أعلمنا به الجاحظ اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة او زكام او صداع لأن العليل يتروّح بنسيم ارضه كما تتروح الأرض الجدبة ببَلل المطر .

ومن ينظر في شعر العرب يتبين له حنينها الى غوطة دمشق ، وقصور مدينة السلام ، ونجف الجزيرة ، ومستشرف الخورنق وجوسق سر من رأى في بعدها عنها وطول مقامها بغيرها والأعراب كلام في الحنين الى الاوطان تحسدهم على رقته أعرق الامم في الحضارة .

ومما يؤكد مواقع الديار من قلوب الناس ما جاء في الذكر الحكيم : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم ، فسوى بين قتل انفسهم و بين الخروج من ديارهم .

وسواء في حب الوطن ملوك الناس وسوقتهم ، قال الجاحظ :

كان الاسكندر الرومي جال البلدان ، وأخرب اقليم بابل ، وكنز الكنوز ، وأباد الخلق ، فمرض بحضرة بابل ، فلما أشفى أوصى الى حكمائه ووزرائه ان تحمل رمته في تابوت من ذهب الى بلده حبًا للوطن .

فهذا الملك وامثاله الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، ولا غادروا في اسفارهم شهوة ، لم يؤثروا على ترابهم ومساقط رؤوسهم شيئًا من الاقاليم المستفادة بالتغازي ، والمدن المغتصبة من ملوك الامم .

وكان الناس يتشوقون الى اوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى اوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الملك بن طاهر يستعديه على رجل من التجار اجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله :

ولي وطن آليت ان لا ابيعه ... وان لا ارى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب و نعمة ... كنعمة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكّرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ومن شغفهم بديارهم ان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب كان يقول لمعلم ولده : لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها :

دعيني للغنى اسعى فاني ... رأيت الناس شرهم الفقير

لأن هذا الشعر يدعوهم الى الانزعاج عن اوطانهم ..

وللامم الغربية مذاهب بعيدة في الحنين الى الاوطان ، وقد انتخب البرت سيم طوائف من الكلم استنبطها من آثار كتاب الغرب وشعرائه وأثبتها في مقال عنوانه : المولد وقع عليه نظري في « المجلة العالمية *La revue mondiale* » وقد استخرجت من هذا المقال شيئًا من الكلام اذكره على سبيل الايجاز :

لما نفي اوفيد الشاعر اللاتيني الى شواطئ البحر الاسود خرج من ديارهِ وهو يلتفت الى رومة و بوادي وطنه سولمون و يقول : لا ادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلاً الى نسيانه على وجه الدهر .

وكذلك ڤيرجيل شاعر اللاتينيين، فانه لم ينس مولده البائس مدينة مانطو كل حياته، ولا ذهل هوراس عن بقعة ارضه الباسمة .

قال فنلون في قصيدة له : مهما ضربت في مناكب الارض، فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تلذ لي الاقامة بها و تضحك لي جواؤها اكثر من كل بقعة .

وذكر روسو ايامه التي قضاها في قرية بواسي على مقربة من جنيف فقال : وما فتئت منذ طويت شرخ الشباب ووخطني الشيب اشعر بان ذكرى بواسي تتوقد في خاطري على حين انسى صور غيرها من الذكر وتستقر في حافظتي استقراراً يشتد على تراخي الحقب، فكنت كمن أحس بدنو اجله فطلب السبيل الى الحياة بتذكر اوائلها وأصغر حوادث تلك الأيام يحلو في عيني لانه من تلك الايام .

وانك لتجد العواطف نفسها في كلام لبرناردن دي سان پيير قال : اني افضل باديتي على سائر البوادي، ولا اؤثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها .. ما أسعد الذي يعود الى الديار التي جعل كل شيء فيها محبوباً .

ولما عاد الجنرال دي برسول من وقعة روسيا وهو مثخن بالجراح رأى مولده فصرخ : انا من اوڤيلار ! قريتي قبل كل شيء ..

قال لامارتين وقد ذكر وادي ماكونه وهو يحبه حباً جماً : هذا مسكني منذ الصبا ! سلام على ربيعه وصيفه وخريفه وشتائه ، واهاً لي ! تستخفني تصاريف الدهر في كل خطوة اخطوها فلم أعد الى هذه الديار الا لانتزه فيها ساعات قلائل فاقيس الشجرات التي غرستها لادفن في ظلالها واصلي في جوار قبرين يسيراً من الزمن ..

وكتابات اسكندر دوما تنم عن نزاعه الى تربته وتشتمل على وصف جميل لكل ما يحس به في عودته الى ڤيلار كوتره قال في جملة كلام له : دع هذا المولد الذي انشأ في اعماق قلبي ذكراً ثابتة يجتذبني اليه فكلما دنوت من الموت يشتد هذا الاجتذاب فكأن الطبيعة قد جعلت الانسان يفرح بالبحث عن لحده في ظلال مهده .

وقال في مقام آخر : صرفت ثلاثين سنة من عمري في العمل والنزاع حتى سلبني الدهر رونق ايامي وشرخ شبابي ومع هذا فاني انبسط الى هـذه القرية الصغيرة التي لا يعرفها احد في العالم وقبل وصولي اليها انزل من العربة فاحصي الشجر واجلس الى بعضه فاغمض عيني واتذكر اموراً مضى عليها عشرون سنة وفي جملة هذا الشجر شجرات نزلت مني بمنزلة الاصدقاء القدماء وفي جملتها شجرات غرسها غيري فامرّ بها ولا ابالي كما امر برجال لا اعرفهم ولا تهمني معرفتهم .

وقال كراسزوسكي البولوني مخاطباً مولده :

ايتها الارض الجميلة التي تحتفظين بذكرانا بعد انقضاء الاجل !

ايتها الارض العذبة التي حنوت علينا في قديم الدهر !

اننا نودع خلطاءنا ونحن نأمل لقاءهم في السماء ، ولكننا اذا ودعناك فاننا لا نرى ابداً بعـدك ضيـاعك المحبوبة ، وديارك وجداولك ، وربيعك وصيفك ، وخريفك وشتائك وسائر ما رسخت صوره في اذهاننا في عنفوان الشباب !

كيف تكون عنادلك ، وازاهرك وغدواتك وروحاتك ؟

أترحب بنا السماء حتى تنسى من اجلها كل شيءٍ قديم ؟

ومثل هذا الكلام كثير في آثار الافرنجة احتزيتُ بالقدر اليسير منه تفادياً من التطويل .

وقد احتفظت منذ ست سنين بمقال انشأه الاستاذ محمد افندي كرد علي في وداع غوطة دمشق لم أجد في كل ما قرأته من كلام الافرنجة في الحنين الى الاوطان كلاماً يعلو مقال الاستاذ برقة العواطف ، وبلاغة المعنى وحسن التصوير وهذا هو المقال :

وداعاً غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ومهبط التجليات سلام زكي كتربتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر كانوار ادواحك الجنية ، وتحية طيبة تتساقط على عمرانك تساقط الوابل والطل على جنانك الغبياء ، وحراجك الغلباء ، وانجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء ..

سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفزع الى ارجائها الناسكون والعاملون ، و يتقلب في اجوائها عشاق الطرب وارباب المجون ، فيك تجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ في الافضال على الارضين ، وتبدو همة الخلق اذا

صحت عزائمهم ان يكونوا عاملين لا خاملين ، فليس في الاقاليم ما يفوقك باعتدال المواسم ، وافتراز المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات والازاهر ، وتلوي الجداول والانهار ، وتجلي الطبيعة في العشايا والاسحار . .

سلام على وادي دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين لانه بمنزلة الربيع من الزمن ، ويحلو العيش في ظل أفيائه على سذاجته مهما كان مراً ، وتطمئن النفس الى التنقل في رباعه برداً كان او حراً ، ايه غوطة جلق ! لم يؤثر عنك ان امسكت خيراتك عاماً عن ابنائك ، فلا نفتأين على الدهر تخرجين لساكنيك افلاذ اكبادك على تعاقب الامم والدول ، وتصدقين الود لكل من يطلب قربك فيعيش معك في رخاء وصفاء .

سلام على سكونك في الليالي الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان او صيفاً ، خريفاً او شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يتمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ، ويتعهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار ، سلام عليهم انهم مثال النشاط في المزارعين ، لا يضنون على ارضهم باوقاتهم واتعابهم وفي تجودهم ضروب الخير والمبر كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات كلما رعوها فاحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها ، بيض الوجوه ، شم الانوف ، لان رزقهم مناط ايديهم العاملة ، لا يعتمدون في تحصيل قوتهم على غير قوتهم ، ولا يتكلون الا على من ينزل الغيث ويمرع الزرع ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول من العقول ، وانيرت بانوار علوم المدنية على الاصول ، فتعهد ابناؤها بالتربية كما تربى عندهم الرياض والحقول ، وتوقى مما يؤذي الزروع والثمار والبقول ، لكانت خير بقعة يسكنها ساكن في الحياة ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له في ارضها مربض شاة .

سلام غوطة دمشق كلما غردت اطيارك ، فملك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ، ونعيق الغربان ونقيق الضفادع اذا رددها الصدى في لياليك يفسرهما القلب بمعان لا تفهم منهما في الكور الاخرى ، كما يفسر في النهار ثغاء الماعز وجؤار البقر وخوار الثيران .

فسلام والف سلام يا كريمة الطبع ، و بديعة الصنع ، وعريقة المجد ، ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار والمحسنة للأهل والجار ، ففي مغانيك تصفو النفس وتنجو من سماع فظائع الانسانية المعذبة ، و بقليلك — وان كان قليلك لا يقال له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطام الدنيا تكالب الضاري من الحيوان ، و بتطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ افقك توحي الى الخيال روحاً من عندها تفيض به القرائح وترق العواطف ، وفي منبسط صعيدك الطيب يسلو الخاطر همومه وتطرب الحواس ، من دون ما كاس ولا نغمة اوتار واجراس ..

في هذا الريف العجيب نقرأ سور العدل الالهي في تقسيم الارزاق ، فلا فقر مدقع ولا غنى مفرط ، و يعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلاً ، يغتني افراد منهم بذكائهم واقتصادهم فلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع ارباب النهم ، ولا في اغنيائهم قسوة قلوب اهل الرفاهية والنعم . فسبحان من وفر للغوطة قسطها من الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، واجزل لها عناصرها الحيوية فزادها كر الجديدين نماء الى نماء ..

الى الملتقى يا جميلة الود ، والرجاء ان لا يطول بك العهد ، والسلام اه

وتحصيل المقال ان حب الوطن امر طبيعي في البشر وقد اصبح هذا الحب في عصرنا بمنزلة شريعة تتبعها الجماعات والأمم ، وفي كل يوم تقع الينا اخبار تدل على مبالغ الاوطان من قلوب الناس حتى ان شعوب الارض اصبحت تستعذب منايا ها ، في الذود عن حياضها وتجود بعقائل الاموال وذخائر الاعلاق في سبيل ربوعها وديارها واذا لم يستقر حب الوطن في طبقات الرجال وعرت عليهم مذاهب الحرية والاستقلال ، فلا يجدون اليها مخلصاً .

(شفيق جبري)